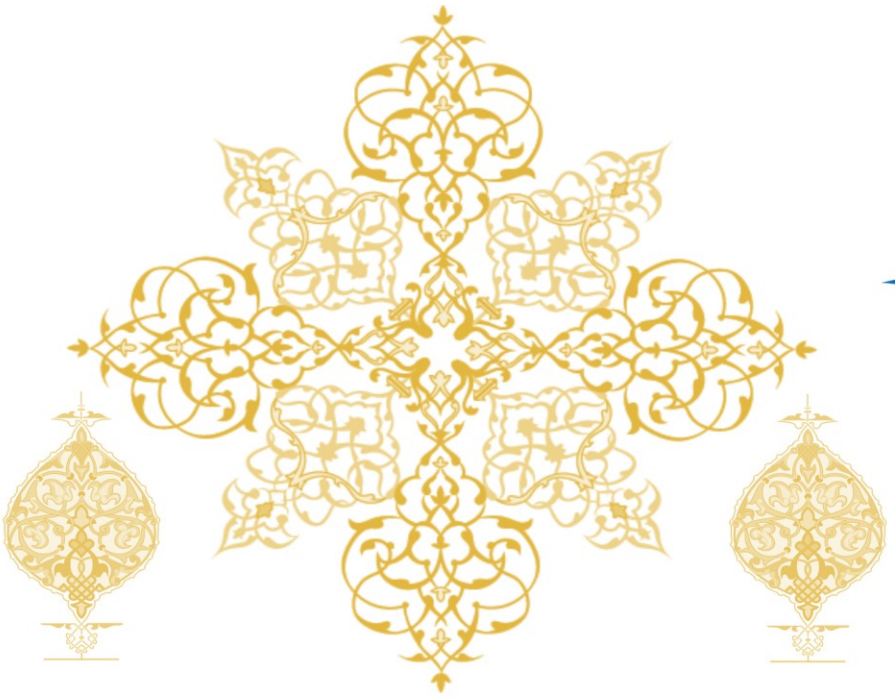

مركز سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

أعلام السلفية (١٠)

الشيخ العربي التِّبْسي
العالم المصلح المجاهد

إعداد

مركز سلف للبحوث والدراسات

الشيخ العربي التِّبْسي

العالم المصلح المجاهد [1]

اسمه ونسبه ونسبته:

هو الشيخ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات التبسي.

والتبسي نسبة إلى مدينة تبسة شرق الجزائر على الحدود التونسية، والتي تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي ٧٠٠ كلم.

تعرف قبيلته بآجروم النموشية، والنمامشة قبيلة أمازيغية كبيرة من مدينة خنشلة إلى شرق تبسة.

مولده:

ولد سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م، بقرية "ايسطح"، جنوب غرب تبسة، وتبعد عنها بنحو ١١٧ كلم.

تكوينه العلمي:

نشأ -رحمه الله- في أحضان أسرة فلاحية فقيرة، في غاية الحفظ والصيانة، وكانت أمه وأبوه في شدة الغرام بالعلم، فغرسا فيه حب العلم بوجدانهما وحديثهما وعملهما في طفولته الأولى، فنشأ محبًّا للعلم كأبويه.

بدأ حياته العلمية على يد والده بعد أن بلغ السادسة من العمر، فتعلَّم القراءة والكتابة، وبدأ حفظ القرآن. وبعد وفاة والده بقي أربع سنوات بكُتَّاب بلده يحفظ القرآن حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، وفي سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٧م انتقل إلى زاوية سيدي ناجي الرحمانية بالخنقة جنوب شرق خنشلة، أين حفظ القرآن كاملا في ثلاث سنوات.

وبعد أن حفظ القرآن وكان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره انتقل إلى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز بنفطة جنوب غرب تونس وذلك سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م، وكان من شيوخه فيها:

---

(١) الترجمة مستفادة من كتاب: آثار العربي التبسي دراسة فنية، رسالة ماجستير في الأدب العربي، قدمها الطالب خالد أقيس، بجامعة منتوري بقسنطينة، قسم اللغة العربية وآدابها، ومقال: حياة الشيخ العربي التبسي وأصول دعوته الإصلاحية، للدكتور محمد حاج عيسى، منشور في ملتقى أهل الحديث. وينظر أيضا: أعلام الإصلاح في الجزائر، لعلي دبوز (١/ ٢٧، ٢/ ١٥)، ومعجم أعلام الجزائر، لعادل نويهض (ص: ٦١)، ومقالات في الدعوة، للشيخ التبسي جمع أحمد الرفاعي.

الشيخ إبراهيم بن الحداد، والشيخ محمد بن أحمد، والشيخ التابعي بن الوادي، وفيها أتقن رسم القرآن وتجويده، وأخذ مبادئ النحو والصرف والفقه والتوحيد.

وفي سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٤م التحق بجامع الزيتونة بتونس العاصمة ليتم دراسته الثانوية، فنال شهادة الأهلية، واستعد لنيل شهادة التطويع لكنه لم يتقدم إلى الاختبار.

وبعد سبع سنوات من التعلم في الزيتونة رحل إلى القاهرة حوالي سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م، ومكث فيها يطلب العلم في حلقات جامع الأزهر ومكتباتها الغنية إلى سنة ١٩٢٧م، وحاز على الشهادة العالمية.

وفي مصر وجَّهه علماء الأزهر إلى كتب أبي إسحاق الشاطبي، فدرس كتاب الموافقات، وكتاب الاعتصام، وفهمهما فهما عميقا، وكان لهما أثر كبير في حياته العلمية ومسيرته الدعوية.

ثم عاد الشيخ -رحمه الله- إلى الجزائر عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٧م؛ ليبدأ نشاطه الدعوي في مدينة تبسة التي أصبح ينسب إليها.

ثناء العلماء عليه:

قال عنه الشيخ ابن باديس: «الأستاذ العربي بن بلقاسم التبسي، هذا رجل عالم نفاع، قصر أوقاته ببلدة تبسة على نشر العلم الصحيح وهدي العباد إلى الدين القويم، فقد عرف قراء الشهاب مكانته بما نشرنا له، وخصوصا مقالاته الأخيرة (بدعة الطرائق في الإسلام)، ولأول مرة زار هذا الأستاذ قسنطينة فرأينا من فصاحته اللسانية ومحاجته القوية مثل ما عرفناه من قلمه، إلى أدب ولطف وحسن مجلس طابت له المنازل ورافقته السلامة حالا ومرتحلا».

وقال الشيخ البشير الإبراهيمي: «مدير بارع ومربٍّ كامل، خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم، وخرجه القرآن والسيرة النبوية في التدين الصحيح والأخلاق المتينة، وأعانه ذكاؤه وألمعيّته على فهم النفوس، وأعانته عزته ونزاهته على التزام الصدق والتصلب في الحق وإن أغضب جميع الناس، وألزمته وطنيته الصادقة بالذوبان في الأمة والانقطاع لخدمتها بأنفع الأعمال، وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ومقارعة الاستعمار في جميع مظاهره، فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة منه برجل يملأ جوامع الدين ومجامع العلم ومحافل الأدب ومجالس الجمعيات ونوادي السياسة ومكاتب الإدارات ومعاهد التربية»[٢].

وقال الشيخ أحمد حماني: «وقد كان عالما محققا ومدرسا ناجحا ومربيا مقتدرا وكاتبا كبيرا، يمتاز بأسلوبه العلمي، بالعمق والمتانة ودقة المعلومات، لكنه لم يترك آثارا كثيرة لاشتغاله - طول حياته- بالتدريس، وما تركه من آثار يبرهن على مكانته العالية في الكتابة، وكما كان كاتبا

---

(٢) آثار البشير الإبراهيمي (٢/ ٢١٧).

كان خطيبا مصقعا، ومحدثا لبقا، ومحاورا ماهرا، يمتاز بحضور البديهة والمقدرة على الإقناع القلبي والفكري وحسن البديهة، وله فيها أمثلة رائعة»[٣].

وفاته:

أدركت الإدارة الفرنسية أن الشيخ العربي التبسي يتمتع بشعبية كبيرة، وأنه مؤيد للجهاد وأحد محركي القواعد الخلفية له، فأرسلوا إليه عن طريق إدارتهم في الجزائر عدة مبعوثين للتفاوض معه بشأن الجهاد ومصيره ولدراسة إمكانية وقف إطلاق النار، فاستعملوا معه أساليب مختلفة من ضمنها أسلوب الترغيب والترهيب، وكان جواب الشيخ دائما: "إن كنتم تريدون التفاوض فالمفاوض الوحيد هو جبهة التحرير"، ذلك أنه شعر بأن مقصودهم هو تفكيك الصفوف، وربح الوقت والحد من حدة المواجهة العسكرية ليس إلا، وبعد رفضة المستمر للتفاوض، رأى المستعمر أنه من الضروري التخلص منه، ولم يستحسنوا اعتقاله أو قتله علنا لأن ذلك سوف يزيد من حماس الأمة للجهاد ومن حقدها على المستعمر، فوجهوا إليه تهديدات عن طريق رسائل من مجاهيل تأمره بأن يخرج من البلاد، وبعد أن أصر الشيخ على البقاء ويئس الكفار منه قاموا باختطافه بطريقة جبانة، ففي مساء يوم الخميس ٤ رمضان ١٣٧٦هـ/ ٤ أفريل ١٩٥٧م، وعلى الساعة الحادية عشر ليلا اقتحم جماعة من الجند الفرنسي التابعين لفرق المظلات سكنى فضيلة الأستاذ الجليل العربي التبسي، الرئيس الثاني لجمعية العلماء، والمباشر لتسيير شؤونها، وأكبر الشخصيات الدينية الإسلامية بالجزائر، بعد أن حطموا نوافذ الأقسام المدرسية الموجودة تحت الشقة التي يسكن بها بحي بلكور طريق التوت... وكانوا يرتدون اللباس العسكري الرسمي للجيش الفرنسي... وقد وجدوا فضيلة الشيخ في فراش المرض الملازم له، وقد اشتد عليه منذ أوائل شهر مارس... فلم يراعوا حرمته الدينية، ولا سنه العالية، ولا مرضه الشديد، وأزعجوه من فراش المرض بكل وحشية وفظاظة، ثم أخذوا في التفتيش الدقيق للسكن... ثم أخرجوه حاسر الرأس حافي القدمين... ولكن المفاجأة كانت تامة عندما سئل عنه في اليوم الموالي بعده في الإدارات الحكومية المدنية والعسكرية والشرطية والعدلية، فتبرأت كل إدارة من وجوده عندها أو مسؤوليتها عن اعتقاله أو من العلم بمكانه.

وقد تكفل بتعذيبه الجنود السنغاليون، والشيخ بين أيديهم صامت صابر محتسب، لا يتكلم إلى أن نفذ صبر "لاقايارد" -قائد فرقة القبعات الحمر-، وبعد عدة أيام من التعذيب جاء يوم الشهادة حيث أعدت للشيخ بقرة كبيرة مليئة بزيت السيارات والشاحنات العسكرية والاسفلت الأسود وأوقدت النيران من تحتها إلى درجة الغليان والجنود السنغاليون يقومون بتعذيبه دونما رحمة وهو صابر محتسب، ثم طلب منهم "لاقايارد" حمل الشيخ العربي... فحمله أربعة من الجنود السنغاليين وأوثقوا يديه ورجليه، ثم رفعوه فوق البقرة المتأججة وطلبوا منه الاعتراف وقبول

---

(٣) صراع بين السنة والبدعة (٢/ ٥٧).

التفاوض وتهدئة الثوار والشعب، والشيخ يردد بصمت وهدوء كلمة الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم وضع قدميه في البقرة المتأججة فأغمي عليه... ثم أنزل شيئا فشيئا إلى أن دخل بكامله فاحترق وتبخر وتلاشى[٤].

فرحمه الله رحمة واسعة، وهو إن شاء الله ممن صدق ما عاهد الله عليه وقضى نحبه وما بدل تبديلا.

من كلماته الإصلاحية:

كرس الشيخ العربي التبسي حياته ونذر أنفاسه لنصره الدين الصحيح، والدعوة إليه، وتعليمه للناس، ومقاومة مظاهر الشرك والوثنية، ومحاربة الخرافات والبدع والمنكرات، قال وهو يقرظ رسالة الشرك ومظاهره ويثني على صاحبها الشيخ الميلي: «خدم بها الإسلام، ونصر بها السنة، وقاوم بها العوائد الضالة والخرافات المفسدة للعقول»[٥].

ودعا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة واعتماد فهم السلف الصالح، فقال رحمه الله: « بهذا الأصل صار الدين لا يمكن أن يؤخذ بحكم العوائد والمحاكاة، ولا تَعَلُّمُهُ من الجاهلين، وإنما يؤخذ حقا تعلّما عن أهل العلم الحقيقيين، الذين يستمدون فهومهم من عناصر الدين الأولية التي هي الكتاب والسنة على مقتضى فهوم الأولين من علماء الإسلام الذين إذا تكلموا على العقائد بينوها وبينوا مآخذها وأدلتها، وشرحوا ما أذن لهم في شرحه، وتوقفوا فيما لا مجال للعمل فيه، أو ردوه إلى ما وضح معناه وظهر مغزاه»[٦].

وحارب التعصب للمذاهب، فكان مما قاله: «وقد رأينا هذا الزاعم يقول: إن الأخذ بظواهر أقوال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأعماله اجتهاد، والاجتهاد قد تقضت أيامه وماتت رجاله، وبذلك يجب على المسلمين أن يتركوا كل آية من الكتاب وكل قول وعمل من رسول الله، ولا يهتدون بشيء من كتاب ربهم ولا من سنة نبيهم، وعليهم أن يقتصروا على ما كتب في الفروع، يحلون ما أحلت، ويحرمون ما حرمت، ويوالون من والت ما داموا غير مجتهدين. هذه هي مقالة هذا المفتي المزهدة في كتاب الله، الصادة عن سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

---

(٤) ينظر: الشيخ العربي التبسي مصلحا، لأحمد عيساوي (١٣١- ١٣٢).

(٥) تقريظ رسالة الشرك ومظاهره.

(٦) المقالات (٢/ ٢٧).

وسلم، وهي باطلة بإجماع المسلمين من يوم أن بعث نبيهم إلى اليوم، ذلك أن العوام والعلماء يعملون بأقوال النبي وأعماله من غير توقف منهم على وصولهم إلى رتبة الاجتهاد»[٧].

وكان ينكر على من يرد السنن بدعوى مخالفتها للمذهب، ويعد ذلك محادة للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويعده أيضًا عصيانا لوصايا أئمة المذاهب وعلى رأسهم الإمام مالك بن أنس الذي كان يقول: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»، فقال الشيخ التبسي معلِّقًا: «لو قدِّر لمالك رضي الله عنه أن يبعث حيا من قبره لقال في نسبة هذا الرهط إليه المخالفين لوصاياه المعطّلين لروح مذهبه ما قال عيسى صلوات الله عليه في أولئك الذين كذبهم بقوله: {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم إنك على كل شيء شهيد}، والله يشهد، وأولو العلم يشهدون أن مالكا بريء من كل نابذ لسنة عملية وقولية بدعوى المتمذهبين بمذهب مالك... وحاشا مالكا أن يقول: صدِّقوا ما يقوله ابن شاس في الجواهر، واكفروا بصحيح الحديث»[٨].

وكان موقف الشيخ من الطرقية صارمًا حازما، ففضح حالهم ونقض بنيانهم، ومما قال: «ألا إن أعدى المسلمين للإسلام أولئك النفر الذين يظنون من قبل أنفسهم أنهم أولياء الرحمن وأحباؤه، وملؤوا أنفسهم ومن يتبعهم بأماني هي ضلال، وما أرادوا بها صوابا. فاستباحوا من الله المحارم، وتعدوا له الحدود، وأعرضوا عما فيه من الهدى، فاغتر بهم الجهال، وانقاد لهم الأغرار، ودخلوا على الناس في عقائدهم، ولبسوا عليهم أمر دينهم، وزهدوا الأمة الإسلامية في علمائها الذين أمر الله أن يرد إليهم الأمر»[٩].

ويقول أيضا: «ها أنتم استطعتم أن تفتنوا الأمة في دينها، وتحيدوا بها عن أولياء الدين الذي جعلتم أهله شيعا وأضرابا، كل يصف غيره بأنه السالك بنيات الطريق، والله يؤاخي بينهم، ويأمرهم بولاية بعضهم بعضا، ورسول الله يحثنا على رص الصفوف وجمع الكلمة حثا، فهل تستطيعون يوم يذاد من بدّل وغيَّر عن الحوض أن تغنوا عنهم من عذاب الله شيئا؟!... فهل هؤلاء

---

(٧) المقالات (٢/ ١٣٢).

(٨) المقالات (٢/ ١٢٤-١٢٣).

(٩) المقالات (١/ ٦٥).

الطرقيون أهدى من أولئك القوم الذين أنعم الله عليهم، أم أرادوا أن يعيدوا تاريخ الكنيسة في الإسلام، ويزعموا الزعامة الدينية، ويتولوا وظيفة التشريع والهدى؟!»[١٠].

وقال: «وإن مؤامرات تحاك في الخفاء ضد هذه الأمة، والمتآمران هما الحليفان على الكيد للجزائر: الاستعمار والطرقية، وعلام يتآمرون؟ على الإسلام الخصم الألد للاستعمار والطرقية في هذه الديار»[١١].

وقال -رحمه الله- وهو يتحدث عن الانحطاط: «لست أعرف ابتداءه تاريخيا، ولكني أستطيع أن أحدده بظهور آثار التغير في هذه الأمة، وأزعم أنه يبتدئ من يوم أضاع الناس السنة المحمدية، وركنوا إلى بدع الرجال التي صرفتهم عن التربية المحمدية والأخلاق الإسلامية، وظهر في الشعب رؤساء ينسبون إلى الدين، فكان وجودهم سببا في انقسام في الوحدة، واختلاف في الكلمة، وذيوع الأهواء، وتحيّز جماعات الأمة إلى نزاعات تفت عضد الوحدة المقصودة للدين، حتى أصبح الحب والبغض ليسا في الله كما هي القاعدة الدينية، واتخذ الناس رؤساء جهالا بدعيين يعدونهم من أولياء الله وخواص عباده المقربين عنده، ففتنت بهم جهلة الأمة وأشباه الجهلة، فنصروهم على عماية، واتبعوهم على غواية، وصار الدين ألعوبة في يد هؤلاء الرؤساء وأتباعهم»[١٢].

وقال وهو يرسم طريق الخلاص والإصلاح: «وها هي السياسة قد خابت وخاب السياسيون، وخابت الآمال على تلك السياسة، وخبنا فيما نرجوه لإصلاح حالتنا... وها نحن قد التمسنا مجموعة من الأدوية وجماعات من الأطباء فلم نشف من أمراضنا، ولم نبرأ من أسقامنا، ولم تعد إلينا صحتنا، فهل من دواء لأمراضنا؟!... نعم، الدواء لأمراضنا والترياق المجرب لأمراضنا واحد لا ثاني له، وما ذلك الدواء إلا عودتنا تائبين إلى العمل بشريعتنا الإسلامية المعصومة، الكفيلة بإسعاد هذا الفرد الشقي وإصلاحه من جميع نواحيه، ومداواته من كل أمراضه، كما داوته يوم فسد قبل الآن بأربعة عشر قرنا. واسألوا التاريخ -أيها المرتابون- عن ذلك إن كنتم في ريب من هذه الحقيقة؛ الشريعة الإسلامية المحصورة في كتاب الله وسنة رسوله وفهوم السلف الصالح لهما دواء للإنسانية في فردها وجماعتها»[١٣].

---

(١٠) المقالات (١/ ٦٨).

(١١) المقالات (١/ ٢١٠).

(١٢) المقالات (٢/ ٣٤).

(١٣) المقالات (٢/ ٦٩).

وقال محذِّرا من مكر الاستعمار الفرنسي وأساليبه الخبيثة في الكيد للدعوة الإصلاحية: «الإسلام الجزائري في حقيقته ترتيب سياسي من تراتيب أنظمة الاستعمار في الجزائر، ومعابده نوع من الإدارة الفرنسية، وموظفوه فوج من أفواج الجندية الاستعمارية، وأمواله قسم من أموال الدولة. ذلك هو الدين الجزائري الذي تبغيه فرنسا، ولا تبغي الإسلام الحقيقي: دين الله، ولا تأذن له بالاستقرار في الجزائر»[١٤].

وكتب بعض الطرقيين مقالًا ينتقص فيه السلفيين ودعوتهم، وألزمهم أن يكونوا مثل الصحابة وإلا كانت دعواهم غير صحيحة ودعوتهم باطلة، فتصدى للرد عليه الشيخ -رحمه الله-، وكان مما قاله: «وهذه الطائفة التي تعد نفسها سعيدة بالنسبة إلى السلف، وأرجو أن تكون ممن عناهم حديث مسلم: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) الحديث، فقد وُفقوا لتقليد السلف في إنكار الزيادة في الدين، وإنكار ما أحدثه المحدثون وما اخترعه المبطلون، ويرون أنه لا أسوة إلا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو من أمرنا بالاتساء به، فلما شاركوا السلف وتابعوهم في هذه المزية الإسلامية نسبوا أنفسهم إليهم، ولم يدع أحد منهم أنه يدانيهم فيما خصهم الله به من الهداية التي لا مطمع فيها لسواهم»، وقال أيضا: «أما السلفيون الذين نجاهم الله مما كدتم لهم فهم قوم ما أتوا بجديد، وأحدثوا تحريفا، ولا زعموا لأنفسهم شيئا مما زعمه شيخكم، وإنما هم قوم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر في حدود الكتاب والسنة، وما نقمتم منهم إلا أن آمنوا بالله وكفروا بكم»[١٥].

---

(١٤) المقالات (٢/ ١٠٤).

(١٥) المقالات (١/ ١٠٩، ١١٥).